

من صفحات البطولة

سلاميش

للاستاذ محمد فريد أبو حديد

قد كان ذلك أثناء الحرب الصليبية التي نال فيها في الشام نحو قرنين طويلين ؛ وكانت جنود مصر العظيمة تحاصر مدينة انطاكية إحدى المدن التي كانت لا تزال باقية في يدي المسيحيين . وكانت جيوش مصر تحارب ببسالها المروعة لا يعرف أحد من جنودها ما معنى الخوف بل يهوى بفرسه كالصاعقة وهو يصبح

صيحة الحرب فيوقع بعده الفشل فيتفرق ويتبدد ، ثم يشيط في رماحه وسيفه .

وكان منظر هذه الجنود مما يروق الأعين ويهيب الأنظار ، فقد كان الفرس وراكبه قطعتين من آيات الفن ومبدعات الصناعة ، فالفرس في ملبسه الحربي عليه العلامة الصفراء تهرق في شعاع الشمس وفوق جسده الدروع والسلاح يحسبها الناظر إليها من عسجد مصفى وإن كانت من صافي الحديد والفولاذ ؛ وكانت ملابسه من تحت تلك الفواشي لا تظهر منها إلا أطراف مزركشة بالذهب أو أذبال من صافي الحرير والقص ؛ وكان الفرس يختال تحت راحته كأنما هو يزهي بما عليه من زينة وحلية ويفاخر بمن عليه من نجاد مغوار ودافع المحصورون في أنطاكية دفاع الإبطال ، لم يتركوا الأسوار حتى لم يبق بها ركن غير مثلوم ، ولم يدعوا الضرب حتى لم يبق لمجانيقهم حجر يقذفون به أو نار يلقون بها على أعدائهم . وانتصرت جنود السلطان العظيم بيبرس . ودخلت المدينة في أهبة النصر واختيال القوة . وكانوا وهم يدخلون المدينة لا ينسون أنهم يلجئون أكبر معقل بني للصاري في الشام بعد أن كانوا قد بسطوا أيديهم على ذلك القطر كله .

كان قائد الجند شابا في مقتبل العمر اسمه سلاميش لو رآه أحد في غير لباس الحرب لقلبه أحد أبناء الملوك المنعمين . وجه مشرق لإشراق الزهرة البانغة ، وقوام عشوق كأنه رمح رديني ، وعينه تلعب

كأنها ربا بفرند سيف دمشق . ولكنه كان في عدة الحرب عليه اللآمة والدروع وفي يده الرمح وفي منطقتة السيف ، ودخل على رأس الجنود فوق جواده الكريم ناظراً إلى الأمام معبسا جاداً والجنود من ورائه لا يلتفت أحد منهم إلى يمين أو إلى يسار ، ولا يتخلف أحد منهم عن طاعة الأمر بمقدار همسة هامس أو طرفة عين . وكانوا كلما نظروا إلى قائدهم الشاب زادت قانتهم استقامة ، فإن هم بعضهم ببسمة وقتت البسمة على شفاهه حذر أن يطلع عليها إذا هو التفت .

وكان يوم دخول انطاكية يوماً مشهوداً ، فكان نساء المدينة وصيانتها أسرى ينتظرون حكم الفاتح فيهم ؛ وكان رجالها وشبانها بين مقيد في الأصفاد ، وجريح في مئاوى العلاج ، وقتيل طريح على جانب الأسوار أو عرض الطريق . وبلغ القائد وجيشه ميدان المدينة الأكبر وقد احتشد فيه الأسرى والضعفاء يتطلعون جميعاً إلى من في يده الحكم في مصائرهم ، وخذت الأنفاس ، وهدأت الأصوات ، وأوماً القائد للجيش بالوقوف حول الميدان ، فوقف الجند ينتظرون إلى أكرام الغنائم التي سيقسمها السلطان الأعظم بينهم وهي من كل نفيس ونادر من تحف الأمراء والأغنياء وقد وقف حولها جماعات من سبائا الحرب بين صبية وعذارى أو كهول وشبان ينتظرون إلى قيودهم حائقين ، أو يكون ويندبون معولين .

وتقدم نحو سلاميش وفد من كبار المدينة وأمرائها حتى إذا ما صاروا منه على بضعة خطوات ركعوا له ووقفوا يطلبون الأذن للكلام ، فأذن لهم وهو معبس على عادته لا تفارقه تلك النظرة الجامدة التي في عينيه ، وجعلوا يتكلمون بلسانهم وقد وقف رجل منهم يترجم ما يقولون . وطلبوا إليه أن يمن عليهم بالفكك وأن يهبهم نساءهم وذرائعهم تقرباً إلى الله الذي نصره بعد أن وضعت الحرب أوزارها ودانت المدينة لحكم السلطان الأعظم ، وقالوا له فيما قالوا : حسبك من تقتل من شبانا وكهولنا ، وما تخرب من ديارنا ومعاهدنا ؛ فلئن كانت بنا كبرياء لقد ذلت ، ولئن كانت فينا عزة لقد هانت ؛ وكفالك من الحرب النصر فلا تضم إليه دموع المساكين ، ولهبب الفراق بين الأبناء والوالدين ، غير أن سلاميش بقي على تعييسه ووجومه ولم يجب إلا بإشارة لجنوده أن يعيدوا الأسرى إلى حيث كانوا وأن يستعدوا لنقل الغنائم والأسرى إلى مخازن السلطان أو إلى خيامه ، فلم يكن للوفد إلا أن ينصرف والحسرة تأكل قلوبهم .

ثم أمر القائد جنوده بالمسير إلى مخيمه وسار في الطليعة يتقدمه لولا أن استوقف نظره جماعة من الجند يهرون شخصاً وهو يمانع ويجاهد ، فتأمل الشخص فلاح له عن بعد شخص امرأة ، فوقف وأمر

بعضه فوق كتفها وبعضه على صدرها أو جوانب جسمها ودش سلاميش من قولها ولم تفته فصاحة في لفظها ولا رخامة في صوتها، ولكنه لم يجب بكلمة، بل رفع حاجبيه وانثنى راجعا إلى خيمته يسير في بطنه ويشور به شيء يشبه الحزن

وأرسل إلى الشيخ الفقيه يستحضره، وأتى إليه لجعل يسأله عن المدينة وأهلها، وعن تلك الفتاة وبيتها، فلقد كان ذلك الفقيه من أهل المدينة قبل الفتح يعيش بين أهلها ويعاشرهم ويخالطهم، فعلم منه أن تلك الفتاة بنت أكبر أغنياء أنطاكية، وأن أباهما كان شديد الولع بتفقيها، وأنها قرأت أدب العرب كما قرأت أدب الفرس، وكان لها أخ قتل في أثناء الحصار، ومات أبوها يوم الفتح، وكان يدعو قومه إلى المصالحة قبل أن تفتح المدينة عنوة، وأراد أن يحمل قومه على تدارك الأمر قبل انقراطه فاتهموه بالجبن، وصاحوا في وجهه، أنه اثر السلامة، فحمله الحفيظة مع كبر سنه على الركوب في وجه الجيش الفاتح، ومات عند أبواب المدينة تحت سنابك الجيش الظافر وسمع سلاميش تلك القصة فأعلنت منه زفرة لم يستطع كتبها، وبات الليلة والاحلام تتخلل نومه حتى لاح الفجر، فصحا وهو مضطرب النفس قلق البال

ولكن أعمال اليوم لم تترك له متسعاً للتفكير في الفتاة ولا في همومها، وكان كلما تذكر كتابها له نازعه نفسه إلى القسوة عليها، ثم لا يلبث أن يلين، وتعاوده رحته. حتى إذا انقضى اليوم وعاد في المساء إلى خيمته رأى نفسه يسير نحو مكانها، وتقرب إليها وهو يتردد ويرفق ثم وقف إلى جوارها هنيهة وقال بصوت خفيض:

« لعلك اليوم أهدأ مما كنت بالأمس،

فلم ترفع إليه بصرها، بل بقيت جالسة، ورأسها بين كفيها والتفت إلى خوانان بالقرب منها، فرأى عليه طعاما لم يمسه، فقال وهو يتكلف الهدوء والجفاء: « وهل تريد أن تموت جوعاً؟ » فلم يجب على قوله، بل حاولت كم يحبها. فقرب منها، وحاول أن يضع يده على رأسها ليرفعه وهو محترس متلطف، ولكنه ما كاد يلمسها حتى نفرت منه وصاحت به قائلة:

« أقول لك اتركني،

فلم يستطع أن يخالفها، فأبعد يده عنها، وتراجع، ناظراً نحوها، ثم تنفس نفساً طويلاً وخرج وفي قلبه حزن وقلق وقضى ذلك اليوم موزع القلب كئيباً، حتى لحظ أصحابه كتابته، وعجب جنوده لجفائه ونفرتة، فكان لا يأمر إلا متبرماً غاضباً، ولا يسمع إلا متجهمًا ساهماً، حتى عجب الناس من ذلك الغضب، في عقب الانتصار، ومن ذلك الضجر لمن كان مثله مكللاً بالجمد والتوقيف. وما انتهى من عمله حتى أسرع إلى سرادقه، ووقف هذه

الجنود بالوقوف، ثم أسرع إلى مكان الجند ليرى ما هناك فوقعت عينه على فتاة بين أذرع جنديين يدفعانها ويترددان في حملها. ولما اقترب منها رأى شابة نحيلة ممشوقة فارعة، بوجهها صفرة قد غطتها حمرة، وفي عينيها حلاوة قد غشيتها صرامة، وهي تنظر إلى الجنديين مرفوعة الرأس كأنها تزهى، جامدة العينين كأنها تتحدى. وقد تمزق ثوبها وتلوث من آثار الوسخ والدماء، لا يكاد يستر من جسمها إلا ما يستر ظل أوراق الشجر من صفحة الجدول.

وقد انسدل على كتفها غطاء من شعرها القاسم وهو يلمع في ضوء الشمس الغاربة. فدخلت الرحمة قلبه برغبه، وتمهدت عيبته ولانت نظراته وأشار إلى جنوده بالكف عنها، ثم نزل إليها وأخذ بذراعها فأجلس له وسارت معه حتى اقترب من شيخ فقيه كان في صحبة الجيش وأمره أن يترفق بها حتى تذهب إلى خيمته. ثم عاد وقد أطارق قليلاً حتى علا صهوة جواده. ثم ركض إلى حيث ترك جنوده واستعاد نظراته وعيبته. وأتى إليهم الأمر بالمسير وقضى سائر اليوم في شغل من أمر جيشه حتى أرغل الليل وعلا البدر وحان وقت العودة فأب إلى سرادقه.

وتذكر الفتاة التي كانت أعمال اليوم قد أنسته ذكرها، فأمر غلاماً أن يحضرها إليه، وجلس يستعيد صورتها ويمثلها وهي تناضل على ضعفها وتتكبر على ذلها، ولم يتألك أن ربت الرقة إلى قلبه، ولم يستطع قهر عبدة ترددت في عينه. وغاب الغلام قليلاً ثم عاد وحيداً فنظر إليه سلاميش كأنما يستفهم عما أتى به، فقال الغلام بعد التهمة: « إنها لا ترد بكلمة ولا ترفع إلى بصرها، فصرفه سلاميش وجلس هنيهة يفكر، ثم نهض متثاقلاً وسار إلى خيمتها حتى إذا دخل ألقاها على الأرض وقد وضعت رأسها بين كفيها.

فدنا منها ووضع يده على رأسها وتبسم ابتسامة ضئيلة وقال:

« يحزني أنهم أساموا إليك،

فانتفضت الفتاة كأنما لسعتها جرة، ثم رفعت رأسها وقامت تنظر إليه والحدق مرتسم على عيائها، ونار الغضب تضطرم في عينيها، وكانت الملابس الرثة التي أتت بها قد تبدلت وألبست حلة من الحرير الأسود جعلت وجهها المصفر وعليه آثار الدموع يدور كالزنبقة المبللة بالندى، ودفعت يده التي مدها نحوها وقالت وفي صوتها بحة: « أبعد يدك عني أيها القاتل السفاك. أدر وجهك الكريه عني فأنت قاتل أبي وأخي، وأنت سافك دماء قومي، وأنت المعتدى على وطني. أبعد عني وأفل في ماشئت من عذاب أو قتل تكمل به وحشيتك وفظاعة جندك. »

وكانت وهي في ثورتها هذه تقذف بنظراتها إليه كالسهام النافذة، وكان صدرها يعلو ويهبط في هياجها، وشعرها الطويل الاسحم يضطرب

المرّة مترددا وجلا ، ودخل في رفق وخشوع إلى مكان الفتاة ، فأبصرها على ما كانت عليه في الصباح ، والحران لا يزال إلى جانبها ، قد تبدل طعامه ، ولا يزال كاملا لم تَل منه شيئا

ونظّر إليها مليا ثم قال برفق : « أما تكلميني ؟ إنني أرجوك أن تنظري إلى وتنطقي بما يجول في نفسك ولو كان قاسيا »

ثم مديده إلى رأسها ومسح عليه متلطفا - ولكنها هذه المرة لم تثر ولم تفضب - وكان نبرات صوته قد حملت إليها ما في فؤاده من حزن من أجلها . على أنها بقيت ساكنة ، وهي جالسة في مكانها كشيبة .

جلس إلى جوارها ساعة يحاول محادثتها وهي لا تجيب الا بدمعة تتر بين حين وحين وفي عينها فتمسحها بمندبل ثم تعود إلى وجوها وسكونها ، فقال لها ولسانه ينم عن مقدار عطفه وحزنه :

« إنني لا أريد إيلامك - لأنني لا أستطيع أن أراك مألما - ولو كان ذهاب أملك بإيعادك عني لفعلت . ألك أهل في عكا أو في مدينة أخرى من المدن فأرسلك اليهم ؟ إن السلطان لن يرد لي طلبا إذا طلبت منه شيئا »

فلم تجبه حتى أعاد عليها القول راجيا مستعطفا - وكان أول ماقاله له أن هزت رأسها نحوه وقالت : « ليس لي أهل - قد تلتهم جميعا » ثم شهقت بالبكاء واسترسلت في هزة مريرة من الحزن ولم يملك سلاميش نفسه من أن يجيش بالحزن ولكنه تمالك بعد قليل وهذا من جأشه وقال لها :

« إنني أرحمك في حزنك ولكني لا أملك دفعه . فقد كان أهلك أعدائي وكنا معا في ميدان قتال يسمون فيه إلى قتلي كما كنت أسعى إلى قتلهم . وهل لك جمان مصير الا الموت في ميدان الحرب ؟ وهل كان أولى بأهلك أن يشهدوا مدينتهم تحطم وتسلب وهم بين هؤلاء الأسرى ؟ إنهم لو كانوا بين هؤلاء الأسرى لما ترددت في إفنائهم من أجلك ولكنهم في غير حاجة إلى ولا إليك . إنني قد رأيتك وبهرق حسنك ، ثم رأيت حزنك فألمني حزنك . ثم تكشفت لي كبرياؤك فقهرت كبرياؤي ، ولو شئت أن تبعدي إلى مكان تختارينه لما رفضت لك مشيئة - وإن أحببت المقام هنا - كنت عندى ولا أقول لي حتى تقولي ذلك أنت »

فظرت الفتاة نحوه وقد زال من عينها ذلك البريق القاسي الذي كان يلوح منهما كلما نظرت نحوه من قبل ، وأطالت نظرتها إليه ثم اغضت بمد أن طبعت في خيالها صورته

ولم يذهب سلاميش ذلك المساء إلى خيمته حتى كان قد قاسمها بعض الطعام الذي قدم إليها في ذلك اليوم ولم تَل منه قبل ذلك شيئا وفي ذلك المساء وفد إلى سلاميش بريد السلطان يحمل إليه أمر

الارتحال إلى دمشق بمن معه من الجند . وبأمره فيه بتقسيم الغنائم بين أمراته وجنوده وتوزيع الاسلاب من أموال وسبايا . ووجه نصيبه من ذلك كله جزاء له على بسالته واعتراقله بما كان من نضاله

وبكر سلاميش قذهب في الفجر إلى خيمة الفتاة وهو خفيف الحظوة منهبل النفس إذ كان قد عزم على خطة أملاها عليه قلبه ، فرأى الفتاة راقدة على أريكة قضت عليها الليلة لم تذق للنوم طمعا ؛ فلما وقع نظرها عليه جال على وجهها طيف ابتسامة واعتدلت في مكانها ونظرت إليه وهو قادم نحوها . ولما حياها تحية الصباح ردت تحيته ، ثم جلس قريبا منها ولم يكن عند ذلك على عادته من اعتداده بنفسه وكبرياته ، بل كان في حديثه خفيض الصوت مهتز الانفاس .

قال لها : « قد أمرني السلطان أن أتحرّك اليوم إلى دمشق بعد أن انتهى الأمر هنا »

فلم تجبه بل نظرت نحوه ، كأنما تسأله عن مصير وطنها ، ومن فيه من رهطها ، وكأنه أحس بما في نفسها من التساؤل فقال : « وقد أراد السلطان العظيم حفظه الله أن يجعل لي حظا من هذه المدينة ، فصاحت الفتاة ومدت نحوه يديها : « إذن فالمدينة في يديك » فقال لها : بل نصيب السلطان منها وسأجعل نصيب من الغنيمة من في المدينة من الأسرى تاركا للجنود أموالها وتحفها »

فصاحت الفتاة ووقفت أمامه قائلة : « وما ذا تفعل بهم ؟ » فتبسم سلاميش نحوها وقال : « هم لك »

فصاحت وصوتها يتهدج من الفرح « هل تفعل ؟ » فقام ومد يديه نحوها وقال : « لقد أكرمني السلطان العظيم بنصيبه ، وسيكون أثر عينا إذا علم أين ذهبت به »

فدت يديها وامسكت يديه الممدودتين وقالت : « ما اسمك ؟ » قال باسم « سلاميش » فنظرت إلى وجهه لحظة ثم تركت يديه وأطرقت إلى الأرض فقال : « وإنني أود أن أعرف ما تحبين فأفقهه لك فان دارك هنا لم يمسا أحد من الجنود . لقد عرفت دارك وعرفت أهلك من بعض أهل المدينة وأعدت كل ما أخذ منها إلى مقره ، ولك أن ترجعي إلى دارك إذا شئت عزيزة في ظل السلطان العظيم »

فظرت الفتاة نحوه وترددت قليلا ثم قالت في حياء : « وأنت ؟ » فقال سلاميش وهو يمانع نفسه من الاضطراب :

« سأذهب إلى دمشق كما أمر مولاي » فسكت الفتاة لحظة ثم مدت يديها بحرارة وقالت : « سلاميش ! وأنا كذلك إلى دمشق أسير » ثم ارتمت بين ذراعيه .

محمد فريد أبو حديد